إشكالية النفس والمعرفة عند أرسطو طاليس

1/ ماهية النفس وقواها عند أرسطو

أولا: تعريف النفس عند أرسطو:

تحدث أرسطو عن مفهومه للنفس [1] ضمن المقالة الثانية من كتابة " **النفس** " **حيث عرفها** في إطار «الوظيفة» التي تقوم بها النفس عموما سواء النباتية التي تقوم بوظيفة التغذية والنمو والتوالد والنفس الحيوانية التي تقوم بالوظائف السابقة الخاصة بالنفس النباتية إضافة إلى وظيفتي الإحساس والحركة المستقلة ، وأخير النفس الإنسانية بجميع الوظائف السابقة بالإضافة إلى وظيفة النشاط العقلي ، وبالتالي فهي في كل حالة من الحالات الثلاثة صورة لبدن ما النباتي أو الحيواني أو الإنساني والنتيجة الواضحة لذلك هي أن النفس تختفي باختفاء البدن، فإذا ما تحلل الجسم بالوفاة تحللت معه النفس، إن النفس هي مبدأ الحياة في جسم مادى، ومن

([1]). تعود الجذور الأولى للاهتمام **بمشكلة النفس في الفلسفة اليونانية** مع طاليس المالطي حين صرح "**أنّ في المغناطيس نفسا هو التي تجذب الحديد إليه**"، لعله التفسير الوحيد الذي وجده "طاليس" لتعليل هذه الظاهرة، فاعتبر بذلك وجود شيء خفي هو الذي يجذب الأشياء إليه، ومن ثم فإن في كل شيء نفسا، فأرسطو يقول: " **ويبدو أيضا أن "طاليس" فيما يرون عنه، ذهب إلى أن النفس قوة محركة وإن صح ما يرون عنه من أنه زعم بأن في حجر المغناطيس نفسا لأنه يجذب الحديد"**. **تستدعي هذه** المقولة أمرين هامين: الأول هو أن في كل الأشياء المتحركة توجد نفس، والثانية هي أن هذه النفس هي مبدأ الحركة، أو هي التي تحرك الأجسام، فهي التي تمنح الحياة لها أي للمادة، لذلك أم "طالس" من أصحاب النزعة " المادية الحية «، و إذا رجعنا إلى تفسيره للمبدأ الأول الذي منه نشأ الكون، فإنه قال بأن أصل الأشياء كلها هو الماء وهذا الأخير هو الذي منه نشأ الإنسان والحيوان والنبات، وكل الأشياء الموجودة في الكون، و وفق هذا الرأي تكون النفس هي مانحة الحياة لهذه المادة ،

ثم فهي تحتاج إلى هذا الجسم المادي لكي توجد مبدأ الحياة في جسم مادى، ومن ثم فهي تحتاج إلى هذا الجسم المادي لكي توجد رغم أنها هي نفسها في ذاتها لا هي مادية ولا هي غير مادية، لكنها بصفة عامة شيء مجرد أعنى مجرد تجريد فحسب. لذلك عرفها أنها: « **صورة (كمال أولي) للجسم طبيعي العضوي= آلي ، ذي حياة بالقوة"** فقوله " **ذو حياة بالقوة"** وقوله **جسم آلي"** معناهما واحد تقريباً، فـ**الجسم الطبيعي الآلي** فهو يقال في مقابل الصناعي وحركته ذاتية وليست قسرية. وأما **الآلي** فهي لا تعنى معناها الحديث، وإنما تعنى الجسم العضوي الذي له أعضاء تمكنه من تأدية وظيفته كالعين والأذن والقلب والرأس واليد. إلخ، فإذا لم يكن للجسم الطبيعي هذه الأعضاء امتنع وجود النفس أما عبارة **ذي حياة بالقوة** فهي تعنى استعداد الجسم الطبيعي للحياة وليست الحياة التي تسري في الجسم شيئًا خارجاً تضيفه النفس إلى أي جسم، بل وظيفة النفس هي إخراج الحياة من القوة إلى الفعل في هذا الجسد المعين. وإذا كان الكون كله يتألف من صورة وهيولى، فإن الإنسان أيضا يتألف من النفس (الصورة) والبدن أو الهيولي) فالنفس هي صورة البدن».

لذلك النفس والبدن أمران غير متغايران مُشكلا العلامة الفاصلة التي تميز الأرسطية عن الأفلاطونية القائمة على مفهوم الجوهر، ليكون الكمال =الفعل هو«**إخراج القوة إلى الفعل والوصول به إلى غايته النهائية**»، فكمال أي شيء هو حقيقته، أي معناه أو مبدأه الذي يحركه، أو غايته التي يتجه إليها، أو فعله الخاص الذي يقوم به، **أي النفس أصبحت كمالا له من حيث تعبر عن ماهيته» ودرجات الكمال** مختلفة فالكمال الأول" يقصد به الفعل القريب، أي الذي في المرتبة الدنيا لا يعني الأعلى أو الذي في مرتبة علياء والكمال حينما يكون أول، يكون في مرتبة أحط من مراتب الفعل، وتحسن تعلم أن المرتبة الدنيا للفعل هي التي يكون فيها الفعل تارة متحققاً، وتارة غير متحقق، أي الذي لا يكون بالفعل باستمرار،

فلما كانت النفس لا تؤدي وظائفها باستمرار، كما هي الحال مثلاً في حالة النوم، فإن فعلها في هذه الحالة فعل أول، أي في المرتبة الدنيا، مادام ليس بفعل مستمر. **ثم وجود بالفعل الثاني وصولا إلى أعلى درجات الكمال وهو الوجود الأفضل** وبذلك فإن **"مفهوم الكمال مكن أرسطو من فهم كل مستويات الوجود وكيفياته المختلفة المنتمية إلى مجالات الأحوال والانفعالات النفسية والبيولوجية والفيزيائية والميتافيزيقية"** .

ثانيا: قوى النفس عند أرسطو:

لما كانت النفس هي من يجعل الجسم حياً بالفعل، كانت أولى وظائفها الحياة، وهذه الوظيفة تعم جميع الكائنات الحية، إلا أن لفظ الحياة يُقال على معان مختلفة، ويكفي أن يوجد معنى واحد منها على الأقل في جسم حتى نقول: إنه يعيش ، سواء أكان ذلك: العقل أم الإحساس، أم الحركة حركة النقلة أو حركة النمو والنقصان ولما كان النبات ينمو بفعل التغذية، كان حياً، وقادراً على الحياة مادام قادراً على امتصاص الغذاء، وما يمنحه هذه القدرة هي النفس التي تقوم بوظيفة التغذية، أما الحيوان فنجد أن معنى الحياة فيه يتجسد في الإحساس، وما يمنحه هذا الإحساس هي النفس التي تقوم بوظيفة الحس، وإذا كان هناك حس فهناك التخيل والنزوع، لأنه إذا وجد الإحساس فهذا يعني أن هناك لذة وألماً، وبالتالي فهناك بالضرورة نزوع وشوق، وبناءً على ذلك فإن للنفس عند أرسطو قوى متعددة: وهي الغاذية والنزوعية والحساسة والمحركة والمفكرة، وقد توجد هذه القوى جميعها في بعض الكائنات، أو بعض هذه القوى في بعض الكائنات، وربما لا توجد إلا قوة واحدة في بعض الكائنات، مثل النبات الذي لا يحوي إلا قوة واحدة، هي القوة الغاذية، أما الحيوان فيحوي قوة التغذية بالإضافة إلى القوة الحاسة، وعند بعض الحيوانات توجد القوة المحركة، ولدى البعض الآخر قوة التفكير والعقل، **وهي أرقى قوى النفس**، ويذهب أرسطو إلى القول: إن القوة الأرقى تحوي القوة الأدنى، فالقوة الحاسة تتضمن القوة الغاذية، والمفكرة تتضمن الغاذية والحاسة ...

وهكذا، وبناءً على ذلك نجد أن أرسطو يقول بأنواع ثلاثة للنفس: **النفس النامية، والنفس الحاسة، والنفس العاقلة** النفس النباتية أو القوة الغاذية :وهي أولى قوى النفس، وتوجد في جميع الكائنات، إن الحياة فيها، ولها وظيفتان التوليد والتغذية، فالكائن الحي إنما يستمر في وجوده وتوالده ونموه من خلال الغذاء والنفس النباتية هي التي تمكن الكائن الحي من التغذي من جهة أولى، وتساعده توليد والتعليم. بما يستمر في وجوده وتوا والنفس النباتية هي التي تمكن الكائن الحي من التغذي من جهة أولى، وتساعده على التوالد لحفظ نوعه وذلك من خلال توليد كائنات شبيهة بهذا الكائن من جهة أخرى فالنبات يولد نباتاً والحيوان يولد حيواناً .

النفس الحاسة : وتوجد هذه النفس في الحيوان، وتشمل بالإضافة إلى قوى النفس النامية، **الحركة والإحساس،** وتنقسم إلى محركة ومدركة، **فالقوة المحركة** تتدفع بالنزوع والرغبة، وهذه القوى تحرك الكائن الحي نحو الموضوع الذي أثار رغبته، أو تدفعه إلى الابتعاد عن الموضوع الذي أثار فيه ألماً. أما **القوة المدركة،** فهي نوعان: **إدراك ظاهر** يتم عن طريق **الحواس الخمس،** والمحسوس الخاص بهذا الإدراك يدرك بصورة مباشرة من قبل الذات، ولكل حاسة من الحواس محسوس خاص بها مثل البصر حاسة اللون، والسمع حاسة الصوت .. الخ والحواس الخمس عند أرسطو لا تخطئ في الحكم على المحسوسات الخاصة بكل حاسة منها «لأن الإحساس بالمحسوسات الخاصة صادق دائما، ويوجد عند جميع الحيوانات **إدراك باطن** ويتألف هذا الإدراك من **الحس المشترك،** المخيلة والذاكرة، وهذه الحواس الباطنة تدرك المحسوس بصورة غير مباشرة، إذ تجتمع الاحساسات الواردة من الحواس الخمس في الحس المشترك، **والحس المشترك** يُدرك المحسوسات التي لا تستطيع الحواس الخمس إدراكها مثل الحركة، والسكون والشكل، أما المخيلة فتقوم بحفظ الصور بعد غياب موضوعاتها عن الحواس، وتؤدي المخيلة دوراً كبيراً في الأحلام، وتقوم الذاكرة بحفظ الصور إذ يمكنها أن تستعيد هذه الصور وتدركها بعد غياب موضوعاتها متى شاءت ذلك .

النفس الناطقة :تنفرد هذه النفس بامتلاكها العقل، وهو أرقى قوة من القوى المدركة، فالعقل يستطيع إدراك ماهيات الأشياء وخواصها التي لا تتغير، وهو على نوعين: عقل منفعل، وعقل فعال العقل المنفعل: وهو العقل الذي يتقبل الصور الحسية التي ترد إليه من المخيلة وليس لهذا العقل أي وظيفة سوى أنه يتقبل الصور الواردة من المخيلة، أما العقل الفعال: فإن وظيفته الإدراك الصحيح، وذلك بأن يأخذ الصور من العقل المنفعل و يحولها إلى مدركات عقلية عامة، وذلك لأن المعرفة وكل معرفة، هي معرفة الكلي وعلى هذا النحو يكون العقل المنفعل بمنزلة مادة للعقل الفعال. ن قول أرسطو بهذه الأنواع الثلاثة من النفوس لا يعني أنها مستقلة عن بعضها البعض، وبالتالي تكون النفس عنده منقسمة كما هو الأمر عند أفلاطون فقد جعل النفس تنقسم إلى عاقلة وشهوانية وغضبية، وكل واحدة منها لها وظيفتها الخاصة ومكانها الخاص، فوظائف النفس عند أرسطو متكاملة، وكل وظيفة منها هي مادة للوظيفة الأسمى والعكس ليس صحيحاً ، فهناك وحدة في النفس وما يحقق لها هذه .الوحدة هي ذاتها، فليس الجسم هو ما يحفظ وحدة النفس، وإنما النفس هي التي تحفظ وحدة الجسم. **إذا في هذا التحديد فإن أرسطو لا يميز بين أنواع مختلفة للنفس، وإنما يميز بين وظائف مختلفة للنفس، فلا ينبغي أن تخدع حينئذ بتقسيمه النفس إلى نفس نباتية، ونفس حيوانية، ونفس ناطقة أو عاقلة أو نظرية، لأنه لا يقصد من هذا التقسيم إلا أن هذه وظائف مختلفة تقوم بها نفس واحدة.**

ثالثا: نظرية المعرفة عند أرسطو:

إن الفعل المعرفي عند أرسطو -في ضوء التراتبية السابقة الخاصة بقوى النفس المختلفة- ينتظم وفقا لنموذج ينطلق من الإدراك الحسي وصولا إلى الإدراك العقلي عبر **واسطة قوى الإدراك الداخلي الموسومة بالحس الباطن** ف«**إنه إذا تؤمل كيفية حصول المعقولات لنا، وبخاصة المعقولات التي تلتئم منها المقدمات التجريبية، ظهر أنا مضطرون في حصولنا لها أن نحس أولا ثم نتخيل، وحينئذ يمكننا أخذ الكلي ولذلك من فاتته حاسة ما من الحواس**

فاته معقول ما فإن الأكمه ليس يدرك معقول اللون أبدا ولا يمكن فيه إدراكه، وأيضا فإن من لم يحس أشخاص نوع ما، لم يكن عنده معقوله، كحال في الفيل وليس هذا فقط بل يحتاج مع هاتين القوتين إلى قوة الحفظ وتكرر ذلك الإحساس مرة بعد مرة أخرى حتى ينقدح لنا الكلي ولهذا صارت هذه المعقولات إنما تحصل لنا في زمان». وبذلك فإن تحقيق الفعل المعرفي عند أرسطو يستلزم نوعين من الشروط شروط البناء الإنتاجية التي تقف بنا عند جملة القوى المساهمة في الفعل المعرفي، والثاني، شروط البناء التنظيمية التي ترصد لنا كيفية انتظام المعرفة عبر صيرورة التجريد وقولبتها في كليات نظرية. ففي المستوى الأول من الشروط الموسومة بالإنتاجية لابد من توفر جملة من القوى في فعل الإدراك المعرفي، وهي على التوالي القوة الحاسّة وهذا النوع من القوى ينسب إلى جسد الحيوان من أجل وجود النفس به، والقوة الحاسة تندرج ضمن القوى المنفعلة تحتاج إلى محرك خارجي لا من جنس القوى الفاعلة التي تفعل من ذاتها ، ولذا فلا تحس من ذاتها، لذلك لو أحست الحواس من ذاتها من جهة كونها قوى فاعلة لأمكن عندئذ أن نحس بدون فاعل خارجي ولهذه القوة-الحاسة – أجزاء منها ماهو متعلق بالشق الخارجي للإدراك وهي الحواس الخمسة إذ منها «**ما هو ضروري في وجود الحيوان ومنه ما هو موجود لمكان أفضل، وهذه كلها تختلف أيضا في الحيوان بالقوة والضعف، فأما التي وجدت في الحيوان من أجل الضرورة، فهي حاسة اللمس وحاسة الذوق، وأما التي وجدت من جهة الأفضل فحاسة السمع وحاسة البصر وحاسة الشّم**».

يعود هذا الأمر كون حاسة الذوق واللمس ضرورية في بقاء الحيوان لأنها بمنزلة الأشياء التي ترد بدنه من خارج إلى الداخل، وذلك بحاسة الذوق يميز الطعم الملائم من غير الملائم، وبحاسة اللّمس يميز الأشياء والأمور التي تفسد بدنه من خارج والتي تحفظه وتناسبه، وأما الحواس الأخر في فعلها يكون على جهة الأفضل مثل البصر فهي حاسة لتقبل معاني الألوان مجردة عن الهيولى من جهة معان شخصية، أما السمع فهو القوة التي من شأنها أن تستكمل بمعاني الآثار الحادثة في الهواء عن مقارعة الأجسام بعضها بعضا المسماة أصواتا. أما الجزء الثاني منها من قوى الحس وهى قوى الإدراك الداخلية الخمس المسماة الحس المشترك والتخيل

والمصورة والحافظة والذاكرة فإنها تدرج ضمن شروط المعرفة التنظيمية حيث تلعب دور الوسيط بين قوى الإدراك الحس الخارجية وقوة العقل فالمعلوم أن أوّل حاسة من الحواس الداخلية (الباطنية) المسماة **بالحس المشترك** تقوم بتجميع كل الإحساسات الآتية من الحواس الظاهرة الخارجية المشتركة مثل الحركة والعدد والشكل والمقدار والمتغايرة مثل الأبيض والحلو لتأتي **الحاسة المصورة** فتقوم باحتفاظ ما قبله الحس المشترك من الحواس الخمس الجزئية بحيث يبقى فيه بعد غيبة المحسوسات «**ففي الحس المشترك قوة على التمسك بآثار المحسوسات وحفظها**». ليقوم **الخيال** بالحكم على المحسوسات بعد غيبتها ولذلك «**كانت أتمّ فعلا عند سكون فعل الحواس كالحال في النوم**». أما في حال الإحساس فإن هذه القوة تكاد ألا يظهر لها وجود، وإن ظهر فبعسر ما يفترق من الحس. إلى جانب ذلك توجد قوتين وهى **الحافظة والذاكرة** « **تخص الأولى (الحافظة) معاني أجزاء الشيء المحفوظ على التوالي والاتصال فإذا أحضرتها ركب بعضها إلى بعض المميز ورسمها المصور، والثانية (الذاكرة) إنما تحضر أجزاء الشيء بحركة منقطعة غير متصلة**» فالثانية ليست إدراكا حسيا ولا تخيلا وإنما هي من تأثير أحدهما بشرط انقضاء مدة من الزمن وعليه « **فإنه يظهر من أمرها (الذاكرة) أنها جزئية ومحتاجة في فعلها أن تتقدمها قوتان، قوة الحس وقوة التخيل، ولكنها رغم احتياجها لهما إلا أنها متباينة عنهما، والتذكر فهو طلب هذا المعنى الذي كان مدركا في الزمان الماضي بإرادة وذلك إذا نسيه الإنسان، وإحضاره بعد غيبته بالفكرة فيه، ولذلك يشبه ألا يكون التذكر إلا خاصا بالإنسان** »

بذلك فإن أرسطو يعطي دورا هاما **للحس والخيال والعقل** في تشكيل المعرفة فالإدراك الحسي يكفل للإنسان الاتصال بعالمه الخارجي مستقبلا منه (العالم والمحسوسات) مختلف الانطباعات الحسية؛ فالسمع مثلا في الإنسان هو الطريق إلى التعلم؛ لأن التعليم إنما يكون بالكلام، والكلام إنما يتأدى إليه عن طريق السمع وكل حاسة من حواس الإنسان هي الطريق إلى المعقولات الأول الحاصلة له في ذلك الحس وبخاصة السمع والبصر. لكن **الحس** وحدّه

غير كافي، لإدراك المعرفة لذلك لابد من قوة أخرى هي **قوة العقل** ومادام أن العقل لا يتعامل مباشرة مع العالم وإنما يتعامل معه بواسطة الخيال «**ففي الحقيقة بدون مقصّد تخييلي يجعلها (الصور) مفهومة في فعل يفرزها، لا يستطيع العقل الفاعل أن ينتج أشكالا مفهومة في فعل من شأنه أن يستقبل من طرف العقل المادي**» بمعنى أنه يتعامل مع المحسوسات التي تمّ حفظها في الخيال، إن النفس لا تفهم شيئا بدون الخيال، كما أن الحواس لا تحسّ شيء بدون حضور المحسوس. بالتالي فما يميّز قوة الخيال كما أبنا سابقا «**أنها تحكم على المحسوسات بعد غيبتها ولذلك كانت أتمّ فعلا عند سكون فعل الحواس كالحال في النوم**».

لكن ما يميز المعاني الخيالية، أنها تضل شخصية وهيولانية= مادية، وعليه لا يمكن أن نعتبر هذه المعاني كلية وشاملة ومحددة لأنها ممزوجة بالحواس، لذلك لابد للوصول للماهية الحقة للأشياء وجود قوة أخرى **فصنف المعرفة الخيالية لا يرقى إلى مرتبة العلم لأنه لا علم إلاّ بالكليات**، في حين أن المعرفة الخيالية تمتاز بالجزئية وبالعطالة التي تمنعها من التحول الذاتي إلى المعقولات، لذلك ستبقى على عتبة العالم جاثمة إن لم تتدخل **قوّة مفارقة** أو فعل مفارق، يخرجها إلى ضوء النهار إلى نور المعرفة هذه القوّة هي **قوّة العقل** ومجرى العقل عند أرسطو شبيه بمجرى الطبيعة –الحس- من حيث الانفعال والفعل فكلاهما بحاجة إلى موضوع حقيقي وإلى صور تحمل هذا الموضوع، والمقصود بهذا «**أن في العقل فعلان؛ فعل القبول وفعل التكوين فيكون فينا عقل يقبل كل معقول وفينا عقل يفعل كل معقول**» هذه الإشارة إلى أن «**الاستقبال بالنسبة لأحدهما والإنتاج بالنسبة للآخر** حيث أن **العقل الفاعل** l'intellect agent **يؤثر في الخيال، ونتيجة هذا الفعل هي التي تؤثر في العقل المادي** l'intellect matériel ، عكس ما يجري في الإحساس أين المحسوس يؤثر في المعنى» فعلاقة العقل بالخيال ليست علاقة قابل بمقبول، أي ليست كعلاقة العين بالنظر، بل هي

علاقة المحرك بالمتحرك والمحسوس بالإحساس اتضح من ذلك دور الخيالات سيغدو إلى التحريك لا القبول.

إن المعرفة على هذا النحو معقدة وليست مبسطة إذ ليس هناك سوى المركب حيث تقوم المعرفة باجتثاث موضوعها من محيط مركب من أجل وضعه داخل وضعيات بسيطة مختزلة ولذلك فالمعرفة عبارة عن "**ترجمات وإعادة بناء يقوم بها العقل على مستوى المعاني الخيالية بتعامله مع المادة المحفوظة هناك أي تلك المعاني التي تشمل الإشارات التي التقطتها الحواس وقامت بتشفيرها على المخيلة**". وبذلك تكون المعرفة من منظور أرسطو، هي عبارة عن استخراج المعلومة من الضجيج وإعادة تنظيمها وتشفيرها على مستوى الخيال ليتعامل بها معها العقل ويقولبها في شكل معاني كلية حيث تقوم **المعرفة بفعلين الأول فعل النزع آو التعري** فتقوم الحواس والعقل بتعرية الصور من هيولاتها فالحس ينزع الصور الحسية على مستوى تعامله مع المحسوسات أي العالم الخارجي، والعقل كذلك ينزع من المعاني الخيالية ما بقى من الترسبات الهيولانية= المادية، ليأتي **الفعل الثاني وهو فعل الفهم** حيث يقوم بوضع في قوالب كلية تمثل الحدّ التام لشيء لذلك نقول إنّ المعرفة عند أرسطو هي "**عملية عليا معقدة تعطي للإحساسات صورتها المميزة ومعناها الخاص في شكل قوالب نظرية عبر مرحلتي التعرية والفهم**". ب

سؤال المعرفة عند فيلسوفنا يكشف لنا أمرين **الأول**: أن المعرفة لاتصل إلى حالة من التشبع أو الامتلاء والرضا المطلق، فهي لا تنتهي فلانهاية لها في الزمان والمكان والكيف باستمرار النوع البشري وباستمرار العالم، **والثانية**: إمكانية الاتصال «**بالمعقولات المفارقة التي تعتبر أشرف المعقولات= الإله**" لذلك لا وجود لحقائق تند عن العقل أي القدرة العقلية عند أرسطو، فكل شيء في إمكان العقل، حتى **النومين الكانطي** لأن العقل في ذاته إمكان

مطلق، شريطة هذا الاتصال التحرر من المعطيات الحسية وأسسها الزمانية والمكانية، وعلى تجاوز المقولات المنطقية الضابطة للمعرفة النظرية، ليعانق الحقيقة الميتافيزيقة ذاتها ولأنه هو ذاته يملك بطبيعة اللامادية، جواز معاشرة الأشياء في ذاتها أن لم يكن هو ذاته يشارك في بناءها.